

إشكالية التعارض بين حرية الفعل الاجتماعي وسلطة النسق - دراسة نقدية في نظرية الفعل الاجتماعي -

*The problematic of the conflict between freedom of social
action and the authority of the system
- A critical study in social action theory -*

عز الدين منصر*

جامعة الشيخ العربي التبسي

تبسة / الجزائر

Azzeddine.menaceur@univ-tebessa.dz

تاريخ الارسال: 2022/02/08 تاريخ القبول: 2023/03/19 تاريخ النشر: 2023/06/08

الملخص:

تشغل هذه الدراسة السوسيولوجية، على محاولة وضع الفعل الاجتماعي، في سياق خصوصيته المجتمعية التي تدفع به إلى الوجود الاجتماعي، على خلفية ان الدراسات العربية الحديثة، تحاول توظيفه وفق شروط النظرية الغربية، دون محاولة استدراجه إلى داخل النسق المجتمعي. إذ لا وجود لفعل اجتماعي متحرر من سلطة النسق، كما أنه لا وجود لنسق اجتماعي جامد.

تستعين هذه الدراسة بمفاهيم السوسيولوجيا منذ ماكس فيبر، وصولا إلى الآن تورين، لتأكيد النتيجة التالية: لا وجود لفعل اجتماعي خارج النسق مهما كانت طبيعة المجتمع متحررة وحداثية. كما أنه لا وجود لنسق اجتماعي جامد مهما كانت طبيعة السلطة الاجتماعية. وأن النظرية الغربية ذاتها أصبحت تميل الآن إلى سوسيولوجيا تفاعلية يتبادل فيها النسق والفعل التأثير. الشيء الذي يجعل الإشكال يُدرس في ثلاثة أبعاد: الفعل، النسق، التغير، معا ودفعة واحدة.

الكلمات المفتاحية: إشكالية؛ حرية الفعل؛ سلطة النسق؛ نظرية الفعل؛ نقدية.

Abstract:

This sociological study attempts to place social action in the context of the privacy of the communities themselves. On the background, university

* المؤلف المرسل.

empirical studies, inspired by modernity, are trying to recruit him on theoretical terms. There is no social action that is free from the power of system, nor is there a rigid social pattern.

This study uses the concepts of social action sociology from Max Weber to Allen Tourin to confirm the following conclusion. there is no social action outside the social context of harmony, no matter how liberal and modern society is.. And that the Western theory itself now tends to be an interactive sociology in which there is an exchange of system and action. Something that makes the subject matter form into a three-dimensional pyramid: action, system, social change .

Key words: Authority of the system; cortical; freedom of social action; Action theory; problematic

مقدمة

تثير إشكالية المفهوم السوسيولوجي لظاهرة الفعل الاجتماعي، إحدى المداخل القلقة والمخرجة على الصعيد الابستمولوجي النظري والمفهمي، نظراً للوضع الغائم الذي يتخبط فيه هذا المفهوم، سواء على مستوى توظيفاته متفاوتة المعنى، عند علماء الاجتماع ذاتهم، أو على مستوى تداخلاته مع باقي المفاهيم الأخرى، كالنسق الاجتماعي الذي يحدد شكل الفعل ومضمونه ويعطيه مشروعيته الاجتماعية، وكذا التنشئة الاجتماعية، التي تعمل بدورها على إنتاج الفاعل الاجتماعي ذاته، بصورة تتوافق مع القواعد العامة للفعل والسلوك عموماً. الشيء الذي يستدعي منهجياً ومعرفياً محاولة التماس أقل قدر ممكن من التوضيح لهذا المفهوم، قصد إبراز حدوده السوسيولوجية، وتوضيح مساحة توظيفاته داخل مجال هذه الدراسة، التي ننوي القيام بها. خاصة وأننا سنواجه في طريق تحليلنا لمجتمع الدراسة، نوعاً من المجالات المجتمعية المحافظة والتي لاتزال فيها سلطة النسق قائمة وواضحة، علماً أننا فضاءات مجتمعية متحولة من القبيلة إلى الدولة، ومن المحكي إلى الإداري والموثق، ومن التضامن إلى الفردانية.

تحاول هذه الدراسة الإجابة على الانشغال التالي: هل يمكن دراسة الفعل الاجتماعي

بمعزل عن النسق المجتمعي؟

قمنا بمفصلة الإشكال الرئيسي إلى تساؤلات فرعية على النحو التالي:

- كيف يمكن تفسير مختلف التحولات والتغيرات المجتمعية انطلاقاً من الفعل الاجتماعي؟

- وكيف يمكن فهم هذه التحولات داخل سياق النسق المجتمعي العام؟

- كيف يمكن لعلم الاجتماع دراسة الفعل الاجتماعي دون تهيش دور الفاعلين ودون إهدار للنسق؟

ولمعالجة هذه الإشكالية المركزية وضمنا في هذا المجهود الأكاديمي منهجا تحليليا نقديا، يقوم على الحفر والتنقيب داخل بنية مفاهيم الفعل الاجتماعي الأبرز منذ ماكس فيبر وصولا إلى آلان تورين.

I. من المفهوم السوسيولوجي إلى سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي

1. سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي أم سوسيولوجيا إهدار النسق

تعتبر التأكيدات المتوالية لـ "ماكس فيبر" من خلال كتاباته، على ضرورة قيام سوسيولوجيا خاصة تهتم بفهم وتفسير الفعل الاجتماعي، الذي يمكن النظر إليه وفق (النظرية الفبرية) على أنه أحد أنواع النشاط الإنساني، الموصوف بخصوصية تميزه عن غيره من الأفعال. أساساً تقوم عليه (السوسيولوجية)، ففي الوقت الذي يعرف فيه فيبر الفعل الإنساني على أنه سلوك أو نشاط يرتبط بمعنى ذاتي خاص بالفاعل فإن الفعل الاجتماعي لا يكون كذلك إلا إذا تعلق معناه المقصود من قبل فاعله أو فاعليه بسلوك الآخرين، الذين يوجهون حدوثه. ويقصد "ماكس فيبر" بالفعل الاجتماعي كما يقول: "حسام الدين فياض"، «سلوك الفرد أو الإنسان داخل المجتمع، مهما كان ذلك السلوك ظاهراً أو مضمراً صادراً عن إرادة حرة أو كان نتاجاً لأمر خارجي. ومن ثمة يتخذ هذا الفعل أثناء التواصل والتفاعل معنى ذاتياً عند الآخر أو الآخرين، مادام هذا الفعل الاجتماعي مرتبطاً بالذات والمقصدية»⁽¹⁾ وفي مقال للدكتور "عبد الحكيم شريط" نشر بدار ناشري للنشر الإلكتروني تحت عنوان (ماكس فيبر والفعل الاجتماعي) وهو أستاذ جامعي يتقن الألمانية وينقل ما كتبه مباشرة من الكتابات الأصلية لماكس فيبر المدونة باللغة الألمانية. إذ يلاحظ أن «الوضوح، الدقة، الضبط، الثبات، صفات يأمل فيبر أن تصل إليها مفاهيم العلوم الثقافية. لقد وعى تماماً أنه لا يمكن لنا أن نخضع الظواهر الإنسانية للمناهج المطبقة في العلوم الطبيعية، إننا لا نتعامل هنا مع مادة جامدة يمكن لنا ضبطها كمياً ورقمياً... ولكن بالمقابل لا يمكننا أن نترك الأفعال الإنسانية من غير محاولات فهم وتفسير للكيفية التي تسير عليها، ومن ثم إمكانية التنبؤ بها مستقبلياً. ومن هنا بدأت محاولات (فيبر) في صياغة مفاهيم واضحة ودقيقة للعلوم الثقافية، لكي يحاول فهم الفعل الاجتماعي تفسيرياً.»⁽²⁾

والأكيد أن ماكس فيبر وفي سياق تحديده وتأسيسه لسوسيولوجيا الفعل الاجتماعي، نجده قد انطلق من التخمينات الأبستمولوجيا المتعلقة بالدرجة الأولى بضبط مفاهيمه، باعتبارها وسائل وتقنيات تحدد موضوع علم الاجتماع وتفصله بدقة متناهية عن غيرها من الإستهجمات المفاهيمية غير العقلانية. إذ يؤكد في كتابه (مفاهيم أساسية في علم الاجتماع) أن «منهج علم اجتماع الفهم عقلاني، كما يجب بطبيعة الحال ألا يتم تأويل هذه الطريقة على أنها حكم مسبق على أن العقلانية هي التي تسود الحياة فعلياً»⁽³⁾ وبالتالي فالعقلانية ليست سوى محاولة للفهم والتفسير، الذي لا يضع في الحسبان أي اعتقاد بعقلنة الحياة الاجتماعية للأفراد. ويؤكد "عبد الحكيم شريط" في هذا السياق أن «أول خطوة يقوم بها من يحاول فهم النظرية الاجتماعية عند فيبر، يجب أن تبدأ بالتعرف إلى مفاهيمه، ومصطلحاته الأساسية، وهذا ما قام به فيبر فعلياً من الناحية المنهجية. فقد بدأ أبحاثه دائماً بتحديد وضبط المفاهيم»⁽⁴⁾ وفي سياق مجهودات "ماكس فيبر" التأسيسية لسوسيولوجيا الفعل الاجتماعي، قام هذا الأخير بصياغة الإشكالية المركزية لمشروعه الطموح في التساؤلات المعروفة التالية: ماهي مختلف الضوابط التي تجعلنا نميز بين المعرفة العلمية التي تهتم بدراسة ما هو كائن بالفعل والدراسات غير العلمية، التي تهتم بما يجب أن يكون. ثم كيف نستطيع أن نتجاوز عمومية وتجريد المفاهيم بطريقة تسمح لنا بالانتقال إلى الوقائع اللامبريقية العقلية الخاصة والمحددة.

يقترح ماكس فيبر للتمييز والفصل بين المعرفة العلمية وغير العلمية، الفصل المسبق بين المعرفة التي تهتم بالوقائع الموجودة والمائلة أمامنا والقابلة للملاحظة والدراسة الميدانية وهي الدراسة العلمية التي تهتم بتحليل وفهم وتفسير ما هو كائن، والمعرفة غير العلمية التقييمية التي تهتم بدراسة ما سيكون أو ما يجب أن يكون، وهي مجرد إستباقات وإستهجمات عقلية لا تستند إلى الملاحظة الواقعية والميدانية وللوصول إلى هذا الهدف والانشغال السوسيولوجي، وضع "فيبر" مفهوم (الحياد القيمي أو اللأقيمي) في العلوم الثقافية، وقد أخذ "ماكس فيبر" بعين الاعتبار الفرد الفاعل كوحدة أساسية رئيسة لتحليل المجتمع ككل، إذ على علم الاجتماع أن يأخذ في الحسبان الفرد وفعله كمحور أو مقولة مركزية لعملية الفهم والتفسير، فالفرد هو الموجود الاجتماعي الوحيد الذي يعي ويفهم معنى ما يفعل، في حين تمثل المفاهيم الأخرى كالدولة أو الأسرة أو المؤسسة أو باقي الأنساق المجتمعية نتائج أو محصلات محددة من التفاعل الإنساني، الشيء الذي يجعل مهمة علم الاجتماع تقوم على اختزال هذه

المفاهيم إلى نتائج اجتماعية لتفاعل الأفراد المشتركين في النشاط والقابلة للفهم والتفسير، وهنا يعطي "ماكس فيبر" أسبقية الوجود للفعل الاجتماعي على النسق باعتباره مجرد محصلة أو نتيجة لتفاعل أو تقاطع أو التقاء الأفعال الاجتماعية. فالمجتمع إذاً ليس سوى ما يصنعه الفاعلون بمحض إرادتهم خلافاً لما كان يعتقد "إميل دوركايم" من أن المجتمع منفصل تماماً عن الأفراد وهو موجود قبل ميلادهم وسيستمر بالوجود بعد موتهم. هذا من جهة. ومن جهة ثانية يؤكد "ماكس فيبر" من خلال منهجية تحليل وتفسير الفعل الاجتماعي على بناء المفاهيم أو بناء أو ما يسمى (الأنماط المثالية) أو ما يسميه هو (منهجية النمط المثالي)، مما جعله يتجه في تفسيره للفعل الاجتماعي إلى تأسيس (سوسيولوجية الفهم) أو (السوسيولوجية التفسيرية) الشيء الذي فرض عليه إدخال المجهود الاستمولوجي كركيزة محورية لعملية الفهم والتفسير، في مجال نظرية الفعل الاجتماعي. وهنا بالضبط يؤكد على أن علم الاجتماع هو علم الفهم والتفسير الاجتماعيين إذ يقول «إن ما ندعوه سوسيولوجيا هو علم مهمته الفهم، عن طريق تأويل النظام الاجتماعي»⁽⁵⁾ ويضيف قائلاً: بأنه «العلم الذي يعنى بفهم الفعل أو النشاط الاجتماعي وتأويله وتفسير حدثه ونتيجته سبباً... ويمكن القول أيضاً بأنه العلم الذي يحاول أن يدرس الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير علمي»⁽⁶⁾ وهو قبل هذا وذلك كما يقول ماكس فيبر: «حسب المعنى المفهوم هنا لتلك الكلمة التي تستخدم بمعان متعددة» هو: علم يهدف إلى فهم الفعل الاجتماعي بطريقة شارحة ويفسر بذلك أسبابه في تتابعه وتأثيراته، «الفعل» هو هنا سلوك إنساني سواء كان فعلاً خارجياً أو داخلياً، تخلياً أو قبولاً⁽⁷⁾

ويلخص لنا ماكس فيبر مقاصده في هذا السياق عندما يقول: «لا ينشغل علم الاجتماع (بالفعل الاجتماعي) فقط، وإنما يعتبر الفعل الاجتماعي الموضوع الرئيس (لهذا النوع من علم الاجتماع الذي نبحث فيه هنا) الموضوع الذي يمكن أن يعتبر الأساس بالنسبة له بوصفه علماً، الأمر الذي يعني أن هذا الموضوع يفوق في أهميته سائر الموضوعات الأخرى، التي يتناولها علم الاجتماع»⁽⁸⁾ وهذا التصور السوسيولوجي، كمبدأ مؤسس لعلم الاجتماع الفيبري Wébérien، يقتضي منهجياً ضرورة ملحة عنده، تقوم على مفصلة الفعل الاجتماعي ذاته إلى مستويات إذ أنها ستؤسس وستعمل على تشييد البناء المفهومي للنظرية الاجتماعية الفيبرية على النحو التالي:

أولاً: المستوى الفردي للفعل، ويتم فيه الاشتغال على ما يقوم به الأفراد من نشاط، بهدف فهم المعنى الذي يلحقه الفرد بما يقوم به من فعل، ويتعلق الأمر بفهم البواعث الكامنة وراء الأفعال.

ثانياً: المستوى العلائقي الاجتماعي، ويهتم فيه التحليل بفهم عملية التفاعل، بين فاعلين أو أكثر في سياق الحياة المجتمعية. ويتعلق الأمر هنا بفهم الفعل على مستوى علاقات التفاعل التي يقيمها الأفراد ولكي نفهم ما يقوم به الفرد، والمعنى الذي يصاحب أفعاله أو سلوكاته الاجتماعية. يتحتم علينا فهم الفعل الاجتماعي في بعده الجمعي أي من وجهة نظر الفرد كعضو في الجماعة.

ثالثاً: المستوى التفاعلي والترابطي والعلائقي الذي يترتب على إنجازه قيام النظام الاجتماعي، كنسق معقد ومبني يعكس أبعاد مستويات الفعل الاجتماعي السابقة داخل سياق مجتمعي معين. وهذه الصورة التي يبنمها ماكس فيبر للفعل الاجتماعي كاهتمام مركزي لعلم الاجتماع، نجده قد أعطى معناً واسعاً لمفهوم الفعل الاجتماعي يتجاوز بكثير حدود التحليلات السوسيولوجية التي حاول مؤسسو النظرية الاجتماعية إرسائها منذ (أوغيست كونط) مروراً ب (دوركايم) وصولاً إلى (كارل ماركس). وهذا عندما عمل على تضمين الفعل الاجتماعي كلية Totalité السلوكيات الفردية الموجهة للتفاعل مع الآخر، مادام الفاعل يخلع عليها معنى معين ومحدد. ويقسم "ماكس فيبر" هذا الفعل بقوله: «يمكن تحديد الفعل الاجتماعي . مثله مثل أي فعل آخر أيضاً- على أنه:

1. عقلاني غائي: من خلال توقعات سلوك الأشياء في العالم الخارجي وسلوك الأشخاص الآخرين، وباستخدام تلك التوقعات بوصفها (شروطاً) أو (وسيلة) لغاية عقلانية مرجوة ومتوقعة لأنها نجاح لصاحبها.

2. عقلاني قيمي: من خلال الاعتقاد الواعي في قيم أصيلة أخلاقية أو جمالية أو دينية، أو ذات تفسير آخر لا غنى عنها لأي سلوك معين بحث ولا علاقة لها بالنجاح.

3. انفعالي شعوري خاصة: وذلك بفعل تأثيرات راهنة وحالات شعورية.

4. تقليدي من خلال العادة التي درج عليها الشخص»⁽⁹⁾ يشرح لنا (جون سكوت) أنماط الفعل الاجتماعي الفيبري.

أ. «الفعل العقلي الأداتي الذي يتحقق حينما يستعمل الفرد الوسيلة الأكفأ لتحقيق هدفه»⁽¹⁰⁾ الذي يسعى إلى تحقيق غايات محددة واختيار وسائل واضحة.

ب. «الفعل العقلي ذو القيمة الذي يتحقق حينما يلتزم الفرد بمجموعة من القيم التي توجه أفعاله»⁽¹¹⁾ يكون الفرد واعياً ومتفهما للقيم المطلقة التي تنتج وتدفع بالفعل إلى الخارج ويتعلق الأمر بالحالات التي يكون فيها مدفوعاً لتحقيق مطالب غير مشروطة مع الاعتقاد في القيمة المطلقة كغاية دون مطامع خاصة مع التركيز على اختيار الأدوات والوسائل التي تدعم إيمانه بالقيم

ج. «الفعل التقليدي الذي يقوم به المرء بطريقة اعتيادية بديهية، وهو فعل يشمل القليل من التفكير الواعي في الغايات والوسائل ونجد أن الكثير من أفعالنا اليومية الحياتية لا يتصف بالضرورة بالعقلانية»⁽¹²⁾ وإنما ترتبط بما تمليه علينا العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة

د. «الفعل الوجداني الناتج من التعبير عن وجدانيات ما، من قبيل التهجم على الآخر بدافع نوبة غضب»⁽¹³⁾ وفي مجال السلطة داخل المجتمع، يميز ماكس فيبر بين ثلاثة أنواع مختلفة من السلطة، وهي التي تميز هذه الأفعال عن بعضها البعض وتقوم بفرزها على النحو التالي:

- السلطة التقليدية: التي تبنى على شرعية الحاكم التقليدي المنبثقة من مجموع العادات والأعراف والتقاليد، التي تتحول عنده إلى قاعدة لممارسة سلطته السياسية، على شاكلة السلطة الأبوية في المجتمعات التي يسود فيها النظام الأمسي Patriarcal ، وسلطة الإقطاعيين في المجتمعات ذات النمط الإقطاعي الزراعي
- السلطة الكاريزمية: التي تبنى على شرعية الحاكم المستمدة من تفوقه وتميزه كشخص خارق على شاكلة الإسكندر ونابليون وبونابرت والأنبياء والزعماء الكبار.
- السلطة الشرعية القانون: التي تبنى على شرعية الحاكم المستمدة من القوانين والدساتير، ووصوله إلى الحكم عن جدارة واستحقاق، ونموذج ذلك الحكام ورؤساء الأحزاب في الأنظمة الديمقراطية.

2. من سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي إلى فعل التغيير

لعل الاقتصاد السكوتلاندي "ادم سميث" ومن خلا كتابه المشهور (ثروة الأمم)، الذي نشر في القرن الثامن عشر، يعتبر الأول الذي استخدم مصطلح التغيير الاجتماعي بصورة عرضية، ليعبر به عن بعض أوجه الحياة الاقتصادية. ومع أن هذا التوظيف الاقتصادي

لمفهوم التغير الاجتماعي، لم يلاق التداول والرواج المناسبين عند المفكرين. إلا أنَّ السنوات اللاحقة لعام 1922 قد عملت على انتشاره على يد عالم الاجتماع الأمريكي Ogburn " William وليام أوجبرن" من خلال كتابه الشهير (Social Chang التغير الاجتماعي)، الذي أكد فيه أن التغير ظاهرة اجتماعية عامة ومتواصلة وغير متقطعة وثرية ومتنوعة، وليس هناك من داع لربطها بصفة معينة. وبالتالي فمفهوم التغير الاجتماعي مفهوم متحرر من أحكام القيمة لأنه يهتم برصد التحولات الملاحظة، ولا يمكن وصفه بالسلب أو الإيجاب. «ويعتقد بأن النمط العام للتغير الاجتماعي في القرن العشرين يمكن ان يفسر على أساس أن تأثير التقدم التكنولوجي على التنظيم الاقتصادي، الذي يؤدي بدوره الى تغير المؤسسات الاجتماعية مثل العائلة والحكومة... ويؤدي ذلك إلى التغير في الفلسفة الاجتماعية التي يعتقدها الافراد. وعليه يسبق العامل التكنولوجي على الاقتصادي، على الرغم من أنه لا يعتبر الاختراع العامل الوحيد في التغير، ويعتقد "اوجبرن" بأن العناصر غير التكنولوجية يمكن ان تؤثر بالعناصر التكنولوجية، لارتباط جميع أجزاء الحضارة بعضها ببعض الآخر، وأن أي تغير في احدها ربما يؤثر في الأجزاء الأخرى»⁽¹⁴⁾ كما عرفه "هانس فيرث" و"رايت ميلز" «بأنه يعني ما الذي حدث في سياق زمني للأدوار والمؤسسات والأنظمة ويكوّن بناءً اجتماعياً ويظهر نمواً أو انهياراً» ويعتبر خطاب وليام أوجبرن الأمريكي Ogburn William الأول من جنسه، الذي قام بنحت واستخدام وتوظيف هذا المصطلح، ليعني به ما يطرأ على المجتمع من تغيرات وتبدلات وتحولات خلال فترة زمنية معينة، مع أن جذور هذا المفهوم تعود إلى التراث المعرفي اليوناني والإسلامي وكذا التراث الغربي الهضوي، ويحدد "في روشيه، Guy Rocher" أربع خصائص جوهرية للتغير والتحول:-

- التغير الاجتماعي ظاهرة عامة ومنتشرة لدى فئات واسعة من المجتمع، بحيث يستطيع تغيير مسارها وبالتالي فهو. ظاهرة اجتماعية.
- التغير يكون على مستوى البنية ويشمل كل النظام الاجتماعي أو بعض أجزائه.
- يفترض التغير الاجتماعي أن يكون محدداً بفترة زمنية معينة.
- يتصف التغير الاجتماعي بالديمومة والاستمرارية، أي أنه ليس مؤقتاً سريعاً وسطحي الزوال، يصعب فهمه⁽¹⁶⁾

وهذا المنظور يؤكد "ماكس فيبر" كما يقول (حسام الدين فياض): «أن الدوافع والأفكار هي التي تكون وراء التغير الاجتماعي وبمقدور الآراء والقيم والمعتقدات أن تسهم في

التحولات الاجتماعية»⁽¹⁷⁾ وهذا ما حاول توضيحه وإثباته في تحليلاته حول ظهور النظام الرسامي في أوروبا، من خلال كتابه (لقيم البروتستانتية وروح الرأسمالية) الذي يشرح فيه الدور التاريخي للفكر والقيم في عملية التغير الاجتماعي والتحولات الاجتماعية التي رافقت ذلك. وفي سياق تفسيره لظهور الرأسمالية ونشوئه ونموها، لا يستبعد ماكس فيبر دور العامل الاقتصادي في هذا التحول ولكنه يولي الأهمية المركزية للفكر والقيم في تفسير وفهم هذا التحول، حيث ربط ظهور النظام الاقتصادي الرأسمالي كنمط متميز من الحياة العقلانية الجديدة في أوروبا بظهور وميلاد نسق الأفكار والقيم الكاثوليكية كنمط خاص من الاعتقاد الديني، الذي يعرفه كما يقول "جون بول وليام": بأنه «نوع خاص من التصرف في المجتمع، أي في مجتمع ينبغي دراسة ظروفه وتأثيراته، ويتضمن المجال الخاص بالنشاط الديني تنظيمًا لعلاقات القوى الخارقة مع الإنسان»⁽¹⁸⁾ إذ يلاحظ (ماكس فيبر) أن الكاثوليكية كنسق من الأفكار الدينية تقوم على نظام من القيم والأفكار والمعاني، الموجهة إلى تقديس وتعظيم وإجلال الحياة الأخروية. وما الحياة الدنيا سوى مجرد جسر أو طريق يوصل إلى هذه الأخرة، ويعلق (ماكس فيبر) على أحد أكبر الحركات الإصلاحية التي عملت على تأسيس النظام الرأسمالي الغربي، وهي (الكالفينية)، نسبة إلى كالفن بقوله: «ولكن عقلنة الوجود la Rationalisation De L'existence كان يجب أن تكون أقل قوة بكثير، مما كان عليه في الكالفينية Le Calvinisme لأن الضغط الداخلي الذي يمارسه الانشغال بحالة النعمة هذه، التي يجب التحقق منها باستمرار والتي تمثل ضمانًا للمستقبل الأخروي، الذي يتم إنجازه في الحاضر. فاليقين الشخصي الذي سعى وبحث عنه الأحرار للحصول عليه وتجديده، بلا هوادة، في مهمة مهنية متوجة بالنجاح»⁽¹⁹⁾ الأمر الذي يجعل الشأن الديني محل اهتمام للمؤمنين كطريقة للخلاص، مما يؤدي إلى الاهتمام بالنشاطات الدينية كوسيلة من أجل الخلاص. والملاحظ أن تعاليم القس المسيحي "كالفن" كرائد للإصلاح الديني، قد ركزت على القيم والأفكار والمعاني التي أعطت الأولوية والأهمية للحياة الدنيا. وقابلت بين الخلاص كغاية للمؤمنين والنجاح في الحياة الدنيا، إذ عمل ظهور النسق الديني البروتستانتي كنسق ثوري داخل المجتمع المسيحي على تقديس العمل كفعل اجتماعي منتج للثروة والحضارة. وتمجيد النجاح في العمل كمؤشر لنجاعة العمل وقيمه الاجتماعية والحضارية والاقتصادية، كما عمل هذا النظام الديني على إرساء نظام أخلاقي للعمل، يقوم على محاربة التبذير وتدعيم التوجهات الاقتصادية المثمرة والمنتجة للثروة، وبالتالي تغيير أنماط السلوك والفعل

الاجتماعي من الحالة التقليدية المبنية على العادات والتقاليد والعواطف، إلى الحالة المنطقية المبنية على الفعل العقلاني، التي أسست لتحولات كبيرة على مستوى تنظيم حياة الفرد الاجتماعية والاقتصادية. ويفسر "ماكس فيبر" ظهور الرأسمالية بظهور هذه الأفكار، التي كانت تؤسس لقيام فعل اجتماعي عقلاني يقوم على مبادئ جديدة من العمل الجاد والفعال والتنافس لتحقيق الأفضل والنجاح، بالتفكير في إنتاج وتوظيف وسائل وتقنيات أكثر عقلانية وأكثر نجاعة، ومنه ظهور الطبقة الرأسمالية التي ركزت من خلال أفكارها على أنماط الفعل العقلاني، للوصول إلى غاياتها في العمل والإنتاج وتكديس الثروة. وهكذا نجد أن مفهوم العقلانية أو العقلنة أو الترشيذ، المحسوب والمدرّس، يضطلع بدور مهم في تشكيل المجتمع الجديد وتغيره من الناحية الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية، ويتضمن معنى العقلاني وجهين: الأول ويعني استخدام الأسلوب العلمي والتفكير المنطقي أما الوجه الثاني للعقلانية هو التنظيم القانوني الي يتجاوز العادات والتقاليد والعواطف ويقوم على العلاقات غير الشخصية. إذ يُعد هذا الأسلوب العقلاني في التفكير والتنظيم، الوسيلة المثالية من أجل زيادة الكفاءة والفاعلية، وهذا ما يتضمنه مفهوم روح الرأسمالية حاليا إذ يقول: «الناس الذين تحركهم الروح الرأسمالية في العادة هم مختلفون وربما معادون للكنيسة»⁽²⁰⁾

نخلص من تحليلات "ماكس فيبر" إلى نتيجة ذات أهمية فعالة بالنسبة إلى السوسيولوجيا مفادها أن الاهتمام المتزايد بالفرد كفاعل اجتماعي في عملية تفسير وفهم المجتمع ككل. قد عمل على تحويل المجتمع، إلى ساحة أو فضاء لممارسة الإرادات الفردية ومن ثمة اختزال المجتمع ذاته في مستوى معين إلى مجرد تعبير جماعي عن الطموحات العقلانية لأفراد.

3. سوسيولوجية الفعل أم سوسيولوجيا، نسق الفعل الاجتماعي

يلاحظ (إيان كريب) في سياق تعليقاته على نظرية الفعل الاجتماعي، عند (تالكوت بارسونز) أن هذا الأخير قد «هيمن على النظرية الاجتماعية المكتوبة باللغة الإنجليزية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى أواسط الستينيات. ولقد أنتج إطارا نظريا ضخما يدعي من حيث المبدأ قدرته على الإحاطة بكل جوانب الحياة الاجتماعية.»⁽²¹⁾ لعل هذه النظرية تعتبر من أعقد النظريات التي نصادفها في تاريخ السوسيولوجية، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى الظروف الاجتماعية التي شهدتها السوسيولوجيا على مستوى المجتمعات الغربية انطلاقا

من تغول الحداثة وتعملق الفردانية، وتقديس النزعة الإنسانية المتجهة إلى تنصيب الفعل الاجتماعي المشحون بالثورة على كل ما هو تقليدي كأساس لعملية التغير الاجتماعي، التي كان يعول عليها "ماكس فيبر" في نقل المجتمع الغربي إلى حيز العقلانية المؤسسية المبنية على قاعدة الحقوق والواجبات، وكيفية توزيعها. ولهذا السبب كانت نظرية "بارسونز" معقدة تعكس في تفاصيل مفاهيمه الرغبة الملحة في إعادة الاعتبار للمجتمع والنسق الاجتماعي الذين أعلنت عليه الحداثة الحرب بحجة كما يقول "ألان تورين" «الصراع من أجل التعرف على العلاقات الاجتماعية ومن أجل التعبير عنها ضد سيطرة النظام، وخاصة عندما يكون هذا الأخير استبدادياً»⁽²²⁾

وفي سياق إعادة الاعتبار للنسق الاجتماعي، الذي عملت نظرية (ماكس فيبر) على محاولة إهداره، من خلال سوسيولوجيا الفهم والتفسير، يقترح (تالكوت بارسونز) مفهوماً جديداً، يبدو أنه قام بنحته بدقة متناهية، تسمح للسوسيولوجيا بإحداث الانسجام بين مفهومي (الفعل) و(النسق) من حيث هما مفهومان متعارضان، يتعلق الأول بالخيارات الفردية المتاحة اجتماعياً، ويتعلق الثاني بضغوط السلطة الاجتماعية التي تتجه عادة إلى الحد من هذه الخيارات، وجعلها تدور في حيز القيم والقوانين والسلطة، أي ما يسميه (إميل دوركايم) (الضمير الجمعي). ويسمي (تالكوت بارسونز) مفهومه الجديد بـ (وحدة الفعل الصغرى) والتي يحددها (إيان كريب) حين يقول: «تتكون وحدة الفعل الصغرى من الفاعل والوسائل والغايات والبيئة التي تضم أشياء اجتماعية ومادية فضلاً عن المعايير والقيم. وهذا وصف تجريدي لكل فعل»⁽²³⁾ وهذا المفهوم الجديد استطاعت السوسيولوجيا تقليص مساحة حرية الفعل الاجتماعي، الذي يبدو من خلال تعاظم وتغول النزعة الفردانية في المجتمعات الغربية، أنه أصبح يميل إلى تهديد السلطة الاجتماعية القائمة، واختزالها إلى مجرد حدود، يسعى الفعل الاجتماعي إلى إعادة بنائها المستمر، وفق شروط الحرية التي يطالب الجميع بالمزيد منها في سياق نضالاته المستمرة لتنمية الذات الفردية، التي يبدو أنها أصبحت تميل إلى مراجعة الكثير من المفاهيم المرتبطة تاريخياً بالحياة المجتمعية الغربية.

وفي سياق هذا التأسيس، يحدد "تالكوت بارسونز" مهمة عالم الاجتماع والسوسيولوجيا ككل، في محاولة فهم وتفسير مختلف الطرق والسبل، التي ينجز الأفراد بمقتضاها عملية الاختيار والمفاضلة، بين مجموعة النماذج المجتمعية الممكنة للفعل الاجتماعي، وهنا بالذات لا يجب أن ننسي أو يغيب علي البال أننا أمام مفهوم سوسيولوجي

حدثي، يستحضر ويشغل مرجعا معرفيا عقلايًّا له ثقله السوسيولوجي والتاريخي والاجتماعي بالنسبة للأفراد والجماعات، يوظف مفهوم (الفعل الاجتماعي) كعنوان وكإطار لهذا الاستحضار وهذا التشغيل الذي أصبح يمسح فضاءً واسعاً من الأدبيات السوسيولوجية الأمريكية المتنامية في خط إنتاج الوعي والفعل الاجتماعيين. والجدير بالذكر أن هذا التوظيف لمفهوم (الفعل) وإن كان يلاقي رواجاً معيناً عند منتجي الخطاب الحدثي، فإن ذلك لم يمنع طرح عدة إشكالات معرفية Cognitifs على مستوى السلطة الاجتماعية المؤسسية التي تميل إلى تأطيره وتوجيهه أو على مستوى الدراسات الاجتماعية والإنسانية الحدثية التي تميل إلى رفض ذلك. وإن كان هذا يبدو عادياً بالنسبة إلى أنظمة معرفية حدثية متحررة، ومؤسسات اجتماعية محافظة إلى حد ما. الشيء الذي جعل السوسيولوجية عند (بارسونز) تحاول بكل قوة تحويل سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي إلى مدخلا مهماً وذا خطورة فائقة بالنسبة لعلم اجتماع النسق عموماً، مما يوحي بأن هناك مفهوماً لم تكتمل شرعيته. L'égimité داخل النظرية السوسيولوجية عند (تالكوت بارسونز)، وهذا ما جعل (إيان كريب) يعلن صراحةً أن «اهتمام بارسونز ليس منصبا على فعل الفرد وحسب بل على أنساق الفعل أيضاً»⁽²⁴⁾

عمل "تالكوت بارسونز" على تطوير فكرة النسق، والتحليق بها عالياً، للوقوف في وجه الفوضى الاجتماعية، التي خلقتها سوسيولوجيا الفعل المفرغ من النسق. وقد ترافق تطوير وتوسيع فكرته عن النسق والنظام الاجتماعي مع تطوير وتوسيع نظريته ذاتها، والتي سيتم تحويلها من خلال دراساته الميدانية إلى سوسيولوجيا مستقلة. وللدخول من سلطة الفاعل وتعويضه بسلطة النسق والنظام، يقترح "تالكوت بارسونز" مفهوم (البيئة الاجتماعية) الذي تمارس وتشغل فيه كلية العلاقات الاجتماعية التي تتم بين مجموع الفاعلين الآخرين إذ يقول إيان كريب في سياق شرح نظرية بارسونز: «فمن بين الأشياء الاجتماعية في بيئة الفاعل هناك الفاعلون الآخرون»⁽²⁵⁾ وتستطيع هذه العلاقات أن تكون نسق للفعل بالنسبة للجميع، ويتكون «نسق الفعل من العلاقات القائمة بين الفاعلين»⁽²⁶⁾ طريقة التي تمكن المجتمع أو النسق من وضع يد السلطة على الفعل الاجتماعي وتقبيد خيارات الفرد وبالتالي توجيهه والحد من تضخم الحرية التي أصبحت تهدد السلطة الاجتماعية.

يفترض "تالكوت بارسونز" أن النسق الاجتماعي وما يتضمنه من قيم ومعايير وضوابط للفعل، تنشأ تلقائياً أثناء تكرار عملية التفاعل وإقامة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد إذ

تتحول هذه الأخيرة عبر الزمن والتكرار إلى ما يشبه الإلزامات أو الواجبات، التي يُطلب من الجميع الالتزام بها، وهذا التصور السوسيولوجي نجد "تالكوت بارسونز" يحاول من خلال نظرية النسق استدراج مفاهيم "إميل دوركهايم" حول السلطة الاجتماعية، وإعطائها نفسا جديدا. فإذا كان "دوركهايم" يقول: «لم أجد في كل أبحاثي ودراساتي، قاعدة خلقية واحدة، ليست نتاجا لعوامل اجتماعية خاصة»⁽²⁷⁾ فإن الواجبات الإلزامات التي نلاحظها عند المجتمعات ستتحول إلى قانون عام للحياة المجتمعية، ومن ثمة تتحول إلى سلطة باعتبارها تحالفات وتعاقبات واتفاقات تجسد إرادة الجميع في الاستمرار وتحقيق ما يريدون وهو نفس الاتجاه الذي يحاول "تالكوت بارسونز" المضي فيه قدما، إذ يؤكد "ايان كريب" ذلك عندما يقول: «بذا ستشكل بينهم قواعد ومعايير اجتماعية مع قيم متفق عليها وتكون هذه القيم ضمانا لاستمرار تلك الاستجابات.»⁽²⁸⁾ وهي في العادة المسؤولة عن تشكل وقيام المؤسسات الاجتماعية التي ستشرف على إعطاء العلاقات والتفاعلات معنى المجتمعية، من خلال ما ستفرضه على كل فرد من ثواب وعقاب، جزاءات مترتبة على الالتزام أو عدم الالتزام بهذه القواعد. مما يعني كذلك أن الفعل الاجتماعي لا يستطيع أن يكون كذلك إلا من خلال الالتزام بهذه الاتفاقات الجماعية التي نستطيع تسميتها على طريقة "إميل دوركهايم" (ضمير جمعي).

4. نحو سوسيولوجيا ارتباطية، ألان توران Alain Touraine

يلاحظ الباحث الفرنسي "غي باجوا، Guy Bajoit" في سياق تعريف الفعل الاجتماعي عند "ألان توران Alain Touraine"، أن «الموضوع المهتم به سوسيولوجيا للتفسير والفهم منذ منذ قيام السوسيولوجية هو تصرفات الفاعلين الاجتماعيين، من خلال تحليل العلاقات التي يقيمونها فيما بينهم، وهذا التعريف الذي أستعيره من عند الآن توران Alain Touraine، يبقى من وجهة نظري التعريف الأوضح. الذي له علاقة وطيدة بالموضوع -على خلاف الظواهر الطبيعية- فتصرفات الناس هي محصلة السيرورات الذاتية Processus Subjectifs، فالدوافع الشعورية أو غير الشعورية، الواعية أو غير الواعية لأفعالنا هي تمثيلات Representations، لسعي الفاعلين لتحقيق مصالحهم أو قيمهم أو معاييرهم أو مشاعرهم في سياق مادي وتقني معطى، ووتتخذ هذه التمثيلات طابعا ثقافيا متغير من مجتمع إلى آخر، داخل الزمان والمكان»⁽²⁹⁾ وبهذا التعريف عمل ألان توران جاهدا على تدشين رؤية جديدة لعلم الاجتماع تقوم على ركيزة الفعل الاجتماعي في مقابل تهديم التصور السوسيولوجي

الكلاسيكي الذي أقامه علماء الاجتماع منذ دوركهيم من خلال كتابه (تقسيم العمل الاجتماعي) مروراً بكلود ليفي شتراوس من خلال كتبه (ابنية القرابة، والأنثروبولوجية البنيوية، من قريب أو من بعيد) وصولاً إلى "تالكوت بارسونس" Talcott Parsons وكتابه حول (بنية الفعل الاجتماعي 1937 The Structure of Social Action) حول الاهتمام بالنسق والبنية وما يتلزم معها من مفاهيم كالوحدة والفعل وأدوار المكانة، والنسق الاجتماعي ومنه العمل على تحويل الفعل الاجتماعي إلى مجرد انعكاس أو ضل خافت للبنية والنسق. وفي مقدمة ترجمة كتاب (نقد الحداثة) يذكر المترجم "أنور مغيث" «أن ألان توران وبعد تبنيه لمدرسة الفعل الاجتماعي عند عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز سرعان ما اكتشف أنه يسعى إلى اكتشاف آلية عمل النظم الاجتماعية مؤسساً السوسيولوجية على الفكرة المزدوجة لانتصار العقل في المجتمع الحديث وعلى الوظيفية كمعيار للخير... والإنسان طبقاً لهذا الرأي ينظر إليه على أنه مواطن في المحل الأول»⁽³⁰⁾ وهذا التصور هو الذي السوسيولوجيا تعجز عن الإمساك بالمشكلة الاجتماعية الحقيقية المتمثلة في الفعل الاجتماعي.

من خلال مشروعه السوسيولوجي الموسوم (بنقد الحداثة) حاول "الان توران، Alain "Touraine" إعادة الاعتبار لمفهوم الفعل الاجتماعي الذي تم تغييبه في السوسيولوجيات الحديثة أو على الأقل تحويله إلى مفهوم خاضع للبنى والأنساق، وبعثه كمشروع لسوسيولوجيا جديدة تسعى إلى تجاوز المنحوتات المفاهيمية المرتبطة بالنسق الاجتماعي والبنية الاجتماعية. فإذا كان الاشتغال السوسيولوجي السابق ينطلق من تصوير ومفهمة المجتمع على أنه نسق مبني ومنظم، ينبثق ويتجدد ويتطور ويتواصل بفعل العمليات المتتالية والمتجددة لعملية التنشئة الاجتماعية والتكيف الاجتماعي والضبط الاجتماعي، فإن هذا التصور حسب رايه، يقوم على إغفال دور الفاعلين الاجتماعيين الحقيقيين في مقابل تنصيب دور النسق، وهنا يتجه الآن تورين إلى نقد نظريات النسق الاجتماعي باعتبارها تؤسس لسوسيولوجيا اختزالية للفعل الاجتماعي، وفي المقابل يثور الان توران ضد نظريات الفعل الاجتماعي التقليدية التي اعلنت موت النسق والبنية مما جعلها تؤسس لسوسيولوجيا اختزالية كذلك لدور المجتمع والنسق والبنية، وفي سياق هذه الانتقادات اللاذعة لكل الإنتاج السوسيولوجي لا يقبل ألان توران بمفهوم ونظرية الفعل الاجتماعي التي نجدها في كتابات "ريمون بودون" حول ما يسمى (بالمهنية الفردانية) وما يسمى كذلك بـ (التفاعلية الرمزية)

لأنها مجرد تصورات شكلية تقوم على تنصيب الفعل الاجتماعي كموضوع محوري لعلم الاجتماع وإعطائه الأولوية والأهمية، بل وكذلك التغافل عن إمكانياته الحقيقية في التغيير وتناسي المشكلات والاهتمامات الجوهرية الكبرى المتعلقة بقوة مقاومة الأنساق والأبنية. وهنا يصرح الان توران علنا «إن مفاهيم ومناهج علم الاجتماع الكلاسيكي، ذي الطبيعة الكلاسيكية والفاصرة على المجتمع الصناعي، تتزعزع، بل وتنهار في علم الاجتماع الجديد وهو سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية»⁽³¹⁾ وبالتالي فالمشروع السوسيولوجي عند "الان توران" يأتي كإعلان لإفلاس السوسيولوجيا الكلاسيكية التي تبدأ نهايتها عنده مع "الكوت بارسونس" ألّف الان توران ما يزيد أو يقل بقليل على الأربعين كتابا، كلها تمثل مفاصل تأسيسية لنظرية سوسيولوجية جديدة، هي نظرية الفعل الاجتماعي L'action Sociale. وهذا ما كان يهدف إليه منذ صدور كتابه الأول الصادر سنة 1965 والموسوم (سوسيولوجيا الفعل) (Sociologie De L'action)، ولعلّ هذه النظرية تكتمل صورتها النهائية من خلال كتابه (نهاية المجتمعات).

يضع "الان توران" نظريته حول الفعل الاجتماعي كمحاولة جادة لتجاوز (الوظيفية، الماركسية، البنيوية) وهي نظريات أسست لسوسيولوجيا النسق المفرغ من الفاعل الاجتماعي. ولتجاوز كذلك (التفاعلية الرمزية، الفردانية المنهجية) التي اهتمت بالفعل وعزلته عن أنساقه الاجتماعية. وبالتالي تأتي نظرية الان توران لتؤسس لسوسيولوجيا مزدوجة الاتجاه تشتغل على فهم الفعل والنسق معا مع التركيز على العلاقة القائمة بينهما في سياق حركات التحول الاجتماعي، التي تفترض أهداف وغايات واضحة معلنة أو خفية للفعل الاجتماعي، باعتباره ابتكارا وتجديدا وخلقاً للمعنى. ويتعلق الأمر هنا بإعادة الاعتبار للذات الفاعلة، على خلفية أن الفعل الاجتماعي هو دائما وفي جميع الأحوال فعل ذات تاريخية تتحدد توجهاتها بالنظر إلى مجموع الظروف الاجتماعية. ويصرح "توران" قائلا: «تتكون الذات الفاعلة وسط إرادة الإفلات من القوى والأنظمة والسلطات التي تمنعنا من أن نكون ذواتنا، وتعمل على تحويلنا إلى مكونة لنظامها وسلطتها القابضة على نشاط الجميع ومقاصدهم»⁽³²⁾.

5. الان توران والتغير الاجتماعي

يحاول الان توران السباحة ضد التيار في مجال التغير الاجتماعي، إذ نجده يربط إشكالية التغير الاجتماعي بالطريقة التي يعيش بها المجتمع وبالحركة المزدوجة المتأرجحة بين

الكبت والطموح، وبالتالي فالتغير لا يفسر بالقوى والشروط غير الاجتماعية من قبيل مفاهيم التكنولوجيا والدولة التي درج علماء الاجتماع على اعتبارها مصادر ومنابع للتغير الاجتماعي. فأشكال الصراع القائم في ذات الفعل الاجتماعي بين أشكال السيطرة والهيمنة والكبت من جهة والتطلعات والطموحات التي يحملها ذات الفعل من جهة أخرى هي التي تقود عملية التغير ولهذا السبب نجده يؤكد باستمرار على أن «التغير الاجتماعي لا يوجهه تدخل القوى التي نعدّها غير اجتماعية، سواء أكان الأمر متعلقاً بالتكنولوجيا أم بالدولة، بل إنه يتوجه بذاته، بالطريقة التي يعيش بها المجتمع الحركة المزدوجة من كبت وطموح الحركة التي توجه نموه: تركيز السلطة التي توجه التوظيف ومعارض يطالب بتملك جماعي جديد لمصادر الثروة التي يديرها القادة من أجل أنفسهم»⁽³³⁾ ويؤكد ألان تورين من خلال تقديمه لكتابه (نهاية المجتمعات) أن استقرار المجتمعات يقوم بالدرجة الأولى على إقامة التوازن بين الممارسات التي تعود إلى فضاء الفعل والتأويلات التي تعود إلى فضاء الثقافة، وتوافق هذه التأويلات وانسجامها مع الممارسات هو ضمان استقرار المجتمعات، لكن التغير عادة ما يحدث كنتيجة لاختلال هذا التوازن، فالتأويلات التي ينتجها الفاعلون الاجتماعيون من خلال نضالهم والسعي لتحقيق طموحاتهم عادة ما تتجاوز في في طموحها ما هو موجود وقائم من الممارسات التي ستراجع بالمقارنة مع التأويلات الجديدة، وبالتالي يقع التنافر وللانسجام، مما يؤدي إلى رفضها لكل أو بعض الممارسات مما يستدعي تغيير الممارسات لتنسجم مع طبيعة الثقافة الجديدة والتأويلات التي تحمل بداخلها آمال وطموحات وإستشراقات المستقبل إذ يقول: «كل هذه المجتمعات قامت على توازن بين الممارسات والتأويلات. وكلما حدث اختلال بين الطرفين انتقلنا إلى نمط اجتماعي جديد. وقد حدث مثل هذا الاختلال في المجتمع الصناعي الذي لم يعد مجتمعا اجتماعيا يفكر في نفسه بمقولات اجتماعية. والسبب هو تراجع ممارسة اقتصادية اجتماعية حيث كان الرأسمال المالي يوظف في الميدان الصناعي من أجل إنتاج الخيرات والوظائف ودعم المؤسسات الاجتماعية، وأصبح يستخدم في المضاربات المالية، ومن ثمة أصبح المال يسخر من أجل المال، وليس من أجل إنتاج الثروة. وقد أدى هذا الاختلال إلى إفراغ المؤسسات الاجتماعية من دلالاتها، وأصبح يهدد بنهاية المجتمع الاجتماعي.»⁽³⁴⁾ يتعلق التغير الاجتماعي إذا ويتوقف على الفعل الاجتماعي من خلال نضاليته المستمرة للتحرر من جميع أنواع الهيمنة الاجتماعية التي تعمل على تكبيل إرادته وطموحاته، وبالتالي قمع عملية التحول والتغير الممكنة لتجسيد الوعي الذي تحمله الذات الفاعلة التي تعني عنده: «اسم

الفاعل، عندما يكون على مستوى الفاعلية التاريخية للإنتاج توجهات كبرى للحياة الاجتماعية»⁽³⁵⁾ يعلق أنور مغيث في تفسيره للذات الفاعلة بقوله: «هذه الذات هي التي تشكل عصب الحركات الاجتماعية المختلفة التي عن طريق طرحها للتوجهات الاجتماعية الجديدة تقوم بعملية إنتاج المجتمع، هذا التصور هو الذي يجعل علم الاجتماع الجديد يختلف نوعياً عن علم الاجتماع الكلاسيكي»⁽³⁶⁾ والأكد في هذا السياق أن هذه الحركات الاجتماعية المختلفة التي تستمد معنى أفعالها من الوعي بالذات وخطاها وتجربتها، وليس من الموارء الذي كان الإنسان ينتظر منه التمييز والتفريق بين الخير والشر بين الصواب والخطأ. ووهنا بالضبط يعلق "الان توران" المسؤولية على كاهل عالم الاجتماع، لأن وظيفته تكمن في ارتباطه ارتباطاً قوياً بروح النضال وتغيير العالم. وتجنب المجتمع مختلف وانواع الصراعات، والحروب، والرأسمالية، والأوهام الراسخة، وتأسيس مجتمع يتوافق مع الاعتراف بالفاعلين الاجتماعيين الحقيقيين الذين تتعلق إرادتهم وفق "توران" بعملية الإنتاج الاجتماعي وإعادة الإنتاج وهذا ما يؤكده "توران" نفسه عندما يقول: «أن دور عالم الاجتماع يتمثل، في خلق أوضاع يجري فيها تشجيع كل فرد على تطوير مطالبه العميقة بعيداً عن العبارات الجوفاء، هذا الدور الذي اضطلع به من قبل وبطريقة مختلفة مثقفون ملتزمون لا ينتمون إلى أي تنظيم سياسي أو غير سياسي،»⁽³⁷⁾

يعيد الان توران من خلال كتابه: (من أجل السوسيولوجيا) النظر في مهمة عالم الاجتماع الكلاسيكية التي يعتبرها كانت تهدف إلى تكريس البنى والأنساق على حساب الفاعل الاجتماعي، من خلال الدور الذي كان يمارسه عالم الاجتماع ذاته انطلاقاً من "إميل دوركهايم" وصولاً إلى "الكوت بارسونز" و"ريمون بودون" الذين جسدت أعمالهم إرادة النسق والنظم في الهيمنة على الفعل الاجتماعي والسيطرة على الفاعلين الاجتماعيين وإخضاعهم.

يقترح "توران" مفهوماً جديداً يسميه (التدخل السوسيولوجي L'intervention) باعتباره يتوافق مع مركزة مفهوم الفعل الاجتماعي وموقعه داخل رحم السوسيولوجيا، كمنهج يشتغل بدراسة الحركات الاجتماعية (Mouvements sociaux)، التي تمثل بالنسبة لعالم الاجتماع فضاءً واسعاً للتدخل والانخراط ضمن الحركات الاجتماعية الفاعلة بقصد فهم الفعل الاجتماعي فهماً داخلياً حيث يفترض في عالم الاجتماع أن ينخرط في الحركة، وأن يقوم بدراسة الفعل من داخلها دون تبني إيديولوجية الفاعلين فالمطلوب من عالم الاجتماع على حد تعبير الان توران هو أن «ينخرط في الحركة، نعم؛ ولكن يجب عليه أيضاً أن يتخلص

من تنظيمها»⁽³⁸⁾ لا تعنيها في جوانبها الإيديولوجية والعقائدية، مما يجعل عمله يتوجه إلى القاعدة وإلى المناضلين وليس إلى المشرفين والقادة والزعماء، والأکید في هذا السياق أن تدخل عالم الاجتماع سيكون محدد وموجه بتفعيل المجتمع وخلق ديناميته وإبراز حركاته الجديدة والصاعدة والعمل على تشكيلها وتمظهرها كأدوات لعملية التحول والتغيير. ويتعلق الأمر هنا عند "توران" بالحركات الاجتماعية التي «لا تتشكل بالعمل السياسي والصدام ولكن بتأثيرها في الرأي العام»⁽³⁹⁾ ويختتم ألان توران مشروعه السوسيولوجي الجديد من خلال كتابه (الحداثة المتجددة) والذي يعتبره هو نفسه والكثير من الباحثين أهم عمل سوسيولوجي على الإطلاق في حياته والذي يؤكد يمكن تلخيصه في الأفكار التالية: أن مهمة عالم اجتماع اليوم، هو أن يتأمل شروط وجود مجتمع جديد، والطريقة التي يمكن بها للأزمة والقطيعة من جانب، والصراعات من جانب آخر، أن تتحد جميعاً لوضع تنظيم اجتماعي وثقافي جديد، من العشب الحلم بمجتمع مثالي مع نسيان التمزقات والانقلابات التي توشك على الحدوث.⁽⁴⁰⁾

6. النتائج والتوصيات

يمكن في نهاية المطاف تلخيص هذا المنجز البحثي، في محاولة تفسير وفهم العلاقة بين الفعل الاجتماعي والأنساق والبناءات المجتمعية المادية والتقنية وتطورها وتحولها عبر سيرورتها، وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على سيرورة تحول وتغير مختلف القطاعات والمناحي المجتمعية الأخرى انطلاقاً من كون المحاولة التحديثية التي تغامر بعزل الفعل الاجتماعي عن سياقه النسقي ستنتهي في الأخير إلى تسريع وتيرة التغير الاجتماعي بصورة لا تعطي المجتمع فرصة التفاعل مع ماضيه وبالتالي إفقاد الإنسان مبررات وركائز وجوده الثقافي والاجتماعي وإرغام البنى الثقافية والاجتماعية على تغيير مساراتها وفق الاستراتيجيات التحديثية التي يشرف الغرب والإعلام على إنجازها. وبالتالي إدخال المجالات التقليدية في عملية تحول وتغير في شكل قطائع ومجابهات مع الماضي والأصل والتاريخ، أي ما يسميه بيار بورديو «الاجتثاث». يؤدي الاهتمام بدراسة الفعل الاجتماعي دون مراعات الأنساق الاجتماعية، إلى إهدار وتجاوز الروابط والعلاقات التقليدية، وأنساق القرابة الدموية والتقليل من شأن السلطة التقليدية الأب، والجماعة والتعاون، لأن عملية التغير ذاتها تتموقع ضمن بنى مقاومة لا تزال تحاول الاستمرار خاصة وأن الثقل الثقافي والاجتماعي التقليدي لا يزال فعال ومتستر داخل المظاهر الحداثية المادية والتقنية.

وقد استطعنا من خلال هذه الدراسة أن نبني تصور معين حول مفاهيم التحول والتغير، الذي يلحق بالبنية التحتية في شكل ممارسة فردية تحديثية. معادية لسلطة النسق وبالتالي العمل على عمل على خلق هوة ثقافية بين ما نفعول وما نؤمن به، أو النظري والتطبيقي. مما ساقنا إلى اهم الاستنتاجات المتمثلة في كون وتيرة التغير داخل هذا الفضاء المجتمعي أو ذاك تتمفصل إلى عدة تشكيلات غير متزامنة وغير متوافقة من حيث درجة التغير والتحول فالجوانب المادية تتغول وتتعملق على حساب الجوانب الثقافية والاجتماعية العلانقية. وبالتالي تجاور وتعايش (الجمود والتحول) و(الجديد والقديم) و(الحداثي والتقليدي) و(العقلاني والأسطوري) داخل نفس الفعل الاجتماعي وفي نفس الفترة.

قائمة المصادر والمراجع

- [1] الان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، دمشق سوريا، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998،
- [2] ألان توران، براديقمات جديدة، لفهم عالم اليوم، ترجمة جورج سليمان (بيروت لبنان، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2011، ط 1.
- [3] الان تورين: الحداثة المتجددة نحو مجتمعات أكثر إنسانية، ترجمة جلال بدله، دار الساق.
- [4] ألان توران، هل فكرة المجتمع فكرة ضرورية؟ ترجمة محمد سبيلا، (منشورات دار الزمان) سلسلة ضفاف، 2019، ط 1.
- [5] إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونس إلى هابر ماس، ترجمة محمد حسين غلوم، الكويت عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، سلسلة كتب شهرية لعدد 244 أبريل 1999،
- [6] جون بول وليام، الاديان في علم الاجتماع، ترجمة بسام علي بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 2001 ط 1.
- [7] جون سكوت، المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع، ترجمة محمد عثمان.(لبنان: بيروت الشبكة العربية
- [8] حسام الدين فياض، نظرية الفعل الاجتماعي دراسة في علم الاجتماع التأويلي. مكتبة نحو علم اجتماع تنويري. 2018 ط 1.
- [9] ماكس فيبر: مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة صلاح هلال ط 1 مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة المشروع القومي للترجمة، عدد 2011، ط 1، 1675.
- [10] قباري محمد إسماعيل علم الاجتماع والفلسفة، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية 1972، ط 02

[11] Jaffe, A, J, "William Fielding Ogburn" in, I. E. S. S. Vol. 12, p. 279

[12] Gerth, Hans and c. wright mills), character and social structure. New York. Harcourt.1953.

- [13] Guy Rocher, Introduction A La Sociologie Generale, le changement social Tome 3 france .paris ed SEUIL.1986
- [14] Guy Bajoit Guy Bajoit Le renouveau de la sociologie contemporaine la revue Sociologie <https://journals.openedition.org/sociologies/1873>. visité le 06/05/2021 1h18s/1873
- [15] WEBER(1904-1905)L'éthique protestanteet l'esprit duCAPITALISME . Un document produiten version numérique par Jean-Marie Tremblay professeur de sociologie Dans le cadre de la collection.: "Les classiques des sciences sociales"Site web: http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html
- [16] عبد الحكيم شريط ماكس فيبر والفعل الاجتماعي في: 03 تشرين2/ 2021، نوفمبر دار ناشري للنشر الإلكتروني <https://www.nashiri.net/articles/social/5473-2013-11-03-20-42-19.htm> l visité le 12/05/2021 2h20
- [17] راجع الآن تورين يقدم كتاب نهاية المجتمعات متوفر عبر موقع:
- [18] Alain Touraine, la fin des société / <https://www.youtube.com/watch?> visité le 06/05/2021 2h20

التهميش والاقتباس

- (1) حسام الدين فياض ، نظرية الفعل الاجتماعي دراسة في علم الاجتماع التأويلي. مكتبة نحو علم اجتماع تنويري ط1. 2018. ص4
- (2) عبد الحكيم شريط ماكس فيبر والفعل الاجتماعي في: 03 تشرين2/ 2021، نوفمبر دار ناشري للنشر الإلكتروني <https://www.nashiri.net/articles/social/5473-2013-11-03-20-42-19.htm> l visité le 12/05/2021 2h20
- (3) ماكس فيبر : مفاهيم أساسية في علم الاجتماع ، ترجمة صلاح هلال ط1 مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة المشروع القومي للترجمة ، عدد 2011 ط1، 1675، ص3
- (4) عبد الحكيم شريط : ماكس فيبر والفعل الاجتماعي مرجع سابق
- (5) حسام الدين فياض مرجع سابق ص13
- (6) ماكس فيبر مفاهيم أساسية :مرجع سابق ص28
- (7) نفس المرجع السابق ص54
- (8) م نفس المرجع السابق ص 53
- (9) نفس المرجع السابق ص 53
- (10) جون سكوت، المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع ،ترجمة محمد عثمان.(لبنان: بيروت الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط 1. 2009. ص29
- (11) نفس المرجع السابق ص293
- (12) نفس المرجع السابق ص29
- (13) نفس المرجع السابق ص293
- (14) Jaffe, A, J, "William Fielding Ogburn" in, I. E. S. S. Vol. 12, p. 279

(16) Guy Rocher, Introduction A La Sociologie Generale, le changement social Tome 3 france. paris ed SEUIL.1986), p15.

(17) حسام الدين فياض، نظرية الفعل الاجتماعي مرجع سابق ص7

(18) جون بول وليام، الأديان في علم الاجتماع، ترجمة بسام علي بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 2001 ط.1 ص39

(19) WEBER(1904-1905)L'éthique protestanteet l'esprit duCAPITALISME . Un document produiten version numérique par Jean-Marie Tremblay professeur de sociologie Dans le cadre de la collection.: "Les classiques des sciences sociales"Site web: http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html pag113

(20) ibidem p113

(21) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونس إلى هابر ماس، ترجمة محمد حسين غلوم، الكويت عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة كتب شهرية لعدد 244 أفريل، 1999 ص61

(22) ألان توران، هل فكرة المجتمع فكرة ضرورية؟ ترجمة محمد سبيلا، (منشورات دار الزمان)، سلسلة ضفاف 2010 ط1، ص19.

(23) نفس المرجع السابق ص، 66

(24) نفس المرجع السابق ص، 66

(25) نفس المرجع السابق ص، 66.

(26) نفس المرجع السابق ص، 66

(27) قباري محمد وإسماعيل علم الاجتماع والفلسفة، مصر، دار المعرفة الجامعية 1972، ط02، ص57

(28) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونس إلى هابر ماس مرجع سابق ص66.

(29) Guy Bajoit Guy Bajoit Le renouveau de la sociologie contemporaine la revue Sociologie <https://journals.openedition.org/sociologies/1873>. visité le 06/05/2021 1h18s/1873

(30) ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، سوريا، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص9.

(31) ألان تورين، نفس المرجع السابق، ص11.

(32) نفس الكاتب، براديقات جديدة، لفهم عالم اليوم، ترجمة جورج سليمان (بيروت لبنان، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2011، ط1، ص177.

(33) ألان تورين، نفس المرجع السابق ص11

(34) راجع ألان تورين يقدم كتاب نهاية المجتمعات

(35) ألان تورين، (1998)، نقد الحداثة مرجع سابق ص11

(36) أنفس المرجع السابق ص11

(37) ألان توران: براديقات، مرجع سابق ص191

(38) ألان تورين، من أجل علم الاجتماع، مرجع سابق ص53

(39) ألان تورين، نقد الحداثة، مرجع سابق ص12

(40) راجع كتاب: ألان تورين: الحداثة المتجددة نحو مجتمعات أكثر إنسانية، ترجمة جلال بدله، دار الساق